من روائع الشرق والغرب

مغرب الشمس فى البحر

لأمير النثر الفرنسى « شاتو بريان »

من كتابه (عبقرية المسيحية)

بقلم أحمد حسن الزيات

كانت السفينة التى كنا نعبر بها المحيط إلى أمريكا فوق سوية الأرض اليَبَس ؛ فلم يعد أمامنا مَدُّ الفضاء ، غير طبقين من زرقة البحر وزرقة السماء ! فكأنما كان نسيجاً أعده مصور فنان ليتلقى عليه آية إلهامه وإبداع فنه . وكان لون الماء قد ارتد إلى لون الزجاج المذوَّب ؛ وقد سرت فى الموج رِعدة قوية جاءته من ناحية المغرب ، مع أن الريح كانت تهب حينئذ من جهة المشرق ، ثم ثارت من الشمال إلى الجنوب أمواج عالية ، كانت تفتح فى ثنايا أوديتها فُرَجاً طويلة يقع النظر منها على صحارى المحيط . كانت هذه المناظر المنتقلة تختلف وجوهها فى كل لحظة : فتارة تكون سلاسل من الرُّبى المخضرَّة كأنها أخاديد الأجداث فى مقبرة واسعة ، وتارة تكون أرسالاً من الموج تتراءى أعاليه فتحكى قطعاناً من الغنم البيض قد انتشرت فى حقول الخَلَنْج ؛ وغالباً ما ينطبق الفضاء فلا ينطبق عليه تشبيه ، فإذا ارتفعت موجة على متن المحيط ، وانخفضت لجة فصارت كالساحل البعيد ، ومر رَعيل من كلاب البحر فى خط الأفق ، انفتح الفضاء أمامنا فجأة . إنما كنا نتصور اتساع المدى وانفساح الطرف إذا ما تسحَّب على وجه البحر ضباب خفيف ، فكأنما كان يزيد فى سعة الأفق ، ويدفع فى امتداد الجو !

آه ! لشدَّ ما كانت صور الأقيانوس فى تلك الساعة مظهر عظمة ومثار حزن ! ولله تلك الأحلام التى يلقيك فيها ويغمرك بها ! سواء بإيغال الخيال فى بحار الشمال بين الصقيع والزوابع ، أو بارسائه فى بحار الجنوب على جزر الرخاء والغبطة ؟

كان غالباً ما يحدث أن نهب من النوم بعد وهن من الليل فنجلس على ظهر السفينة حيث لا نجد إلا ضابط النوبة وبعض البحارة يدخنون غلاييهم فى سكون وصمت ، وكان كل ما يقع فى الأذن إذ ذاك إنما هو صوت السفينة تشق بحيزومها عباب المحيط ، على حين كان شرار من النار يجرى مع الزبد الأبيض على جانبى المركب . سبحانك اللهم ! ! لقد نقشت فى كل شىء آى قدرتك ، ولا سيما فى أطباق الثلج وأعماق السموات : ملايين من النجوم تشع فى القبة الزرقاء ، وبدر تم يتألق فى كبد السماء ، وبحر لُجِّى من غير ساحل ولا حد ، ولا نهاية فى السماء وعلى الماء ! أبداً ماهزت قلبى عظمتك بمثل ما هزته فى هذه الليالى ، وأنا معلق بين الكواكب والأقيانوس ، فوق رأسى سعة لا تحد ، وتحت قدمى سعة لا تقاس

* * *

أنا لست شيئاً ، إنما أنا ناسك ساذج . ولطالما سمعت العلماء يجادلون فى (الكائن الأول) فلم أفهم عنهم . ولكننى لاحظت أن هذا الكائن المجهول يستعلن وجوده فى قلب الانسان كلما نظر فى المشاهد العظمى للطبيعة

فى ذات ليلة ساجية الجو هفافة الريح ، وجدنا أنفسنا فى تلك البحار الجميلة التى تنضح شواطئ (فرجينيا) ، وكانت الشُّرُع كلها مطوية ؛ وكنت أنا مشغولاً داخل السفينة حين سمعت الناقوس يدعو البحارة إلى الصلاة ، فأسرعت مع رفقاء السفر أمزج دعواتى بدعواتهم ، وأضم صلاتى إلى صلواتهم . وكان الضباط والركاب قد أخذوا مواقفهم على كوثل السفينة ، والقسيس فى يده كتابه قد وقف من دونهم قليلاً ، والملاحون قد انتشروا على ظهر المركب . وكنا جميعاً واقفين ووجوهنا شطر قيدوم السفينة وهى ناظرة إلى المغرب . وكان

قرص الشمس وهو على أهبة المغيب فى الماء ، يتراءى من خلال الجبال فى وسط الفضاء ، فكان يخيل إلىّ من نَوَسان كوثل السفينة أن الكوكب المضئ يغير أفقه فى كل لحظة ! وكانت قطع من السحاب قد انتثرت على غير نظام فى المشرق ، والبدر البازغ قد أخذ يرتفع بطيئاً فى الأفق ، وكانت بقية السماء صافية الأديم سافرة الوجه ؛ وفى جهة الشمال انبعث من البحر إعصار يتألق بألوان المنشور الزجاجى كأنه عمود من البلور قامت عليه قبة السماء ، فتألف منه ومن كوكب النهار وكوكب الليل مثلث باهر الجلالة !

إن الرجل الذى لا يدرك جمال الله فى هـذا المشهد ليستحق الرثاء والرحمة ! أسبلتْ أرواق عينى على الرغم منى حين حسر الرفاق قبعاتهم المقطرنة عن رءوسهم وأنشدوا بصوت أصحل أبح نشيدهم البسيط : « سيرنا صاحبة المقرنة وحامية البحارة »

لشـد ما أثر فى نفسى صلاة هؤلاء الرجال وقد وقفوا وسط المحيط على لوح هَشٍّ من الخشب يتأملون الشمس وهى تغرب فى اللجة : فالشعور بحقارتنا أمام عظمة اللانهاية ، وأناشـيدنا المرسلة على الأمواج ، ودنو الليل بويلاته ومكائده ، وسفينتنا العجيبة فى بحر مسجور بالعجائب ، وفريق من البحارة استولى على قلوبهم الانجذاب والخوف ، وقسيس جليل عاكف على الصلاة ، والله الذى تجلى للبحر فأمسك بإحدى يديه الشمس على حجاب المغرب ، ورفع بالأخرى القمر من مهاد المشرق ، وهو يسمع من خلال الفضاء المطلق أصوات خلقه ، كل أولئك لا يستطيع قلم أن يصوره ، ولا قلب مهما دق شعوره أن يتصوره !

الزيات

دعاء

Invocation

لشاعر الحب والجمال لامرتين

أشار لامرتين فى كتابه (رفائيل) إلى الأشعار الأولى التى « انبجست من قلبه » والتى قرأها « دون أن يجرؤ على رفع بصره إلى رافعها إليها » . ومن المحتمل أن تكون هذه الأبيات :

أنتِ يا من ظهرت لى فى صحراء هذه الدنيا ! يا ساكنة السماء وعابرة هذه الأرض ! يا من أضأت لى بشعاع من الحب هذا الليل الغاشى ! اظهرى بشخصك كله لعينى المشـدوهة ، وقولى لى ما اسمك ، وما وطنك ، وما حظك ؟ أأنت من سلالة أرضية ، أم أنت من نفحة قدسية ؟

* * *

أتذهبين غداً إلى شهود الضياء الخالد ؟ أم لا يزال أمامك فى دار البعاد ودنيا الحداد وموطن البؤس خُطًى تقطعينها فى طريقك الشاق المتعب ؟ مهما يكن اسمك وحظك ووطنك يا ابنة الأرض أو يا ابنة السماء ، فدعينى ما دام ينبض بالحياة قلبى ، أقدم اليك عبادتى أو حبى

* * *

اذا وجب عليك مثلنا ، أن تستوفى أجلك وتبلغى مداك ، فكونى سندى ودليلى ، واسمحى لى أن أقبّل فى كل مكان غبار خطواتك المحبوبة . أما إذا طرت يا أخت الملائكة عن دنيا الشقاء والجحود ، لتعيشى بجوارهم فى دار النعيم والخلود ، فاذكرينى فى ملكوت السماء ، بعد أن أحببتنى أياماً على هذه الغبراء !

الزيات

آلام فـــرتر
للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى
ترجمها الأستاذ أحمد حسن الزيات
ثمنها ١٥ قرشاً

مجموعات الرسالة
ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٣٥ قرشاً
ثمن مجموعة السنة الثانيـة (المجلد الأول والمجلد الثانى) ٧٠ قرشاً
وثمن كل مجلد من المجلدات الثلاثة خارج القطر ٥٠ قرشاً